حَىَّ بن يقظان
للسهروردى

obeikandl.com

مقدمة المؤلف(*)

الرسالة الثالثة

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى محمد وعترته الطاهرين – أما بعد فإنى لما رأيت قصة حَىَّ بن يقظان فصادفتها مع ما فيها من عجائب الكلمات الروحانية والإشارات العميقة معترية[1] من تلويحات تشـير إلى الطور الأعظم الذى هـو الطامة الكبرى المحزون فى الكتب الإلهية المسـتودع فى الرموز المخفى فى قصة حَىَّ بـن يقظان فهو الذى يترتب عليه مقامات الصوفية وأصحاب المكاشـفات وما أشـير فى رسالة حَىَّ بن يقظان إلا فى آخر الكتابة حيث قال «ولقد هاجر إليه أفراد من الناس» إلى آخر الكتاب فأردت أن أذكر طرفًا فى قصة سميتها أنا قصة الغريبة الغربية لبعض إخواننا الكرام وعليه أتوكل وبه أستعين.

سـافرت مع أخى عاصم من ديار ما وراء النهر لنصيد طائفة من طيور ساحل لجة الخضراء فوقعنا بغتة فى قرية الظالم أهلها أعنى مدينة قيروان فلما أحس قومها أننا قدمنا عليهم ونحن من أولاد الشـيخ المشـهور بهادى بن أبى الخير اليمانى أحاطوا بنا وأخذونا وقيدونا بسلاسل وأغلال من حديد وحبسـونا فى مقعر بئر لا نهاية لمسـلكها وكان فوق البئر المطلة التى عمرت بحضورنا قصر مشيد عليها أبراج عالية فقيل لنا لا جناح عليكم إن صعدتم القصر مجردين إذا أمسـيتم أما عند الصباح فلابد من الهوى فى غيابت الجب كان فى قعر البئر ظلمات بعضها فوق بعض إذ أخرج يده لم يكد يراها إلا أنا أوبة النسـاء نرتقى القصر مشـرفين على الفضاء ناظريـن مـن كوة فربما يأتينا حمامات من أيوك اليمن مخبرات بحال الحمى وأحيانا تزورنا برق يمانية تومض من الجانب الأيمن الشرقى وتخبرنا بطوارق نجد تزيدنا بارتياح وجدا على وجد فنحن إلى الوطن ونشـتاق فبينما نحن فى الصعود ليلاً والهبوط نهاراً إذ رأينا الهدهد[2] مسلماً فى ليلة قمراء فى منقاره كتاب صدر من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة وقال لى أنا أحطت بوجه خلاصكما وجئتكما من سبإ بنبإ يقين وهو ذا مشروح فى رقعة أبيكما فلما قرأنا الرقعة فإذا فيها مكتوب إنه من الهادى أبيكم وإنه بسم الله الرحمن الرحيم كما شوقناكم فلم تشـتاقوا ودعوناكم فلم ترحلوا وأشـرناكم فلم تفهموا وأشار فى الرقعة إلى بأنك يا فلان إن أردت أن تتخلص مع أخيك فلا تنيا فى عزم السفر واعتصم بحبلنا وهو جوهر الفلك القدسى المستوى على نواحى الكسوف فإذا أتيت وادى النيل فانفض ذيلك وقل الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشـور وأهلك[3] أهلك واقتل امرأتك إنها كانت من الغابرين وامض حيث

(*) السهروردى.

(١) يقصد عارية.

(٢) يريد بالهدهد الوحى والإلهام، وبأبيكم الله تعالى ١٣٥

(٣) يريد بالأهل الغرائز والبواعث الجسمانية، ويريد بالمرأة النفس الإنسانية ودواعيها الشهوانية وبقتلها التخلص من ميولها.

تؤمر فإن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين فاركب فى السفينة التى ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ (١) فى الرقعة جميع ما هو كاين فى الطريق فتقدم الهدهد وصارت الشمس فوق رؤوسنا إذا وصلنا طرف الظل فركبنا فى السفينة وهى تجرى بنا فى موج كالجبال ونحن نروم الصعود على طور سينا حتى نرمق صومعة أبينا وحال بينى وبين ولدى الموج فكان من المغرقين وعرفت أن قومى موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب وعلمت أن القرية التى كانت تعمل الخبائث يجعل عاليها سافلها ويمطر عليها حجارة من سجيل منضود فلما وصلنا إلى موضع تتلاطم فيه الأمواج وتندرج فيه المياه أخذت ظئرى التى أرضعتنى فألقيتها فى اليم فكنا نسير فى جارية ذات ألواح ودسر وغرقنا السفينة مخافة ملك يأخذ كل سفينة غصبا والفلك المشحون قد مر بنا على مدينة يأجوج ومأجوج على الجانب الأيسر من الجودى كان معى من الجن من يعمل بين يدى وفى عين القطر فقلت للجن انفخوا حتى صار مثل النار فجعلته سداً حتى انفصلت منهم وتحقق وعد ربى حقاً ورأيت فى الطريق جماجم عاد وثمود وطفت فى تلك الديار وهى خاوية على عروشها وأخذت الثقلين مع الأفلاك وجعلتها مع الجن فى قارورة صنعتها أنا مستديرة عليها خطوط كأنها دوابر تقطعت إلا أنها من كبد السماء فلما انقطع الماء عن الرحا انهدم البنا وخلص الهواء إلى الهواء وألقيت الأفلاك على السموات حتى طحن الشمس والقمر والكواكب فتخلصت من أربعة عشر تابوتاً فألقيت سبيل الله فتيقظت إن هذا صراطى على مستقيماً وأختى قد أخذتها بياتا فباتت فى قطع من الليل مظلم وبهاجن وكابوس يتطرق إلى صرع شديد ورأيت سراجاً فيها دهن ينتسج نوره وينتشر فى أقطار البيت وشعل مساكنها من إشراقها نور الشمس عليهم فجعله فى فم تنين ساكن فى برج دولاب تحته بحر قلزم وفوقه كواكب ما عرف مطلع أشعتها إلا باريها والراسخون فى العلم ورأيت الأسد والثور قد غابا والقوس والسرطان قد طويا فى طى تدور الفلك وبقى الميزان مسبوقا فإذا طلع النجم اليمانى من وراء غيوم رقيقة متألقة مما نسجته عناكب زوايا العالم الصغرى عالم الكون والفساد وكان معنا غنم فتركناها فى الصحراء فأهلكتهم فى الزلازل ووقعت فيها نار صاعقة فلما انقطعت المسافة وانقرض الطريق وفار التنور من الشكل المخروط فرأيت الأجرام العلوية واتصلت بها سمعت نغماتها ودستماناتها وتعلمت منها أشياء وأصواتها تقرع مسمعى كأنها صوت سلسلة تجر على صخرة صماء وتكاد تنقطع أدبارى وتنصرم مفاصلى من لذة ما انسل ولا يزال الأمر يتطور على حتى تقشع الغمام وتمزقت المشيمة وخرجت من المغارات والحوت قد انقض من الخيرات متوجها إلى عين الحياة فرأيت الصخرة العظيمة على قلة الطور العظيم فسألت عن الحيتان المجتمعة وعن الحيوانات المتنعمة المتلذذة بظل الشاهق العظيم إن هذا الطور ما هو

(١) سورة هود الآية ٤١

وما هذه الصخرة العظيمة فاتخذ واحدمن الحيتان سبيله فى البحر سرباً وقال ذلك ما كنا نبغى وهذا الجبل طور سينا والصخرة صومعة أبيك فقلت وما هؤلاء الحيتان فقالوا أشباهك أنتم من أب واحد وقد وقع لهم شبه واقعتك فهم إخوانك فلما سمعت وحققت عانقتهم وفرحت بهم وفرحوا بى فصعدنا إلى الجبل ورأيت أباناً شيخاً كبيراً يكاد السموات والأرضون تنشق من تجلى نوره فبقيت تايها متحيراً منه ومشيت إليه فسلم على فسجدت له ولذت أنمحق فى نوره الساطع فبكيت زمانا وشكوت إليه من حبس قيروان فقال لى نعم تخلصت إلا أنك لابد راجع إلى السجن الغربى وأن القيد ما خلفته تماما فلما سمعت طار عقلى وتأوهت صارخا صراخ المشرف على الهلاك فتضرعت إليه فقال أما العود لك فضرورى الآن ولكننى أبشرك بشيئين أحدهما أنك إذا رجعت إلى الحبس يمكنك المجىء إلينا والصعود إلى جنبتنا حين متى شئت والثانى أنك متخلص من الآخر إلى جنابنا تاركاً للبلاد الغربية بأسرها مطلقاً ففرحت بما قال أعلم أن هذا جبل طور سينا وفوق هذا جبل طور سينا مسكن والدى وحدك وما أنا بالإضافة إليه إلا مثلك بالإضافة إلى ولنا أجداد آخرون حتى ينتهى النسب العظيم إلى الذى هذا الجد الأعظم الذى لا جد له ولا أم وكلنا عبيده وبه نستعين ومنه نقتبس وله البهاء الأعظم والجلال الأرفع وهو فوق الفوق ونور النور وهو المتجلى لكل شىء بكل شىء وكل شىء هالك إلا وجهه فأنا فى هذه القصة إذ تغير على الحال وسقطت من الهوى إلى الهاوية بين قوم ليسوا بمؤمنين محبوسًا فى ديار المغرب وبقى معى من اللذة ما لا أطيق أن أشرحه فانتحبت وابتهلت وتحسرت على المفارقة وتلك الراحة كانت أحلاماً زايلة على سرعة نجانا الله تعالى من قيد الهيولى والطبيعة والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعترته الطاهرين وهذه القصة تسمى الغريبة الغربية.

• هذا آخر المخطوط